مجلة الذاكرة EISSN :2676-1734 ISSN: 2335-125X
رقم العدد التسلسلي: 14 مجلد: 08 عدد: 01 السنة: يناير 2020

مدارس توات العتيقة وإسهامها في الدَّرس العروضي

محمد بن أُبَّ المزمّري أنموذجاً

د. عبد الله عماري

المركز الجامعي تامنغست

a.ammari1984@yahoo.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019/05/15	2019/08/04	2020/01/05

الملخص : يسعى هذا المقال إلى إلقاء الضوء على إسهام مدارس توات العتيقة في الدرس العروضي مُتخذاً من محمد بن أُبّ المزمّري أنموذجاً ، مُقدّما في ذلك تعريفاً موجزاً لمدارس توات العتيقة ،وطرق التدريس بها، ومعرِّجا على نبذة من حياة المزمّري وطريقته في التدريس ،وصولاً إلى إسهامه في الدّرس العروضي .

الكلمات المفتاحية : المدارس العتيقة ، العروض ، ابن أبّ ، المزمري.

Abstract

This paper is seeking to highlight the contribution of Tuat's ancient schools in the metrical lesson having Mohammed ben Aubba almozamiri as a case study. The paper presents a brief introduction of Tuat's ancient schools as well as the methods of teaching therein. The paper also gives a short biography of Almozamiri and highlights his way of teaching, finishing off with his contributions in the metrical lesson.

key words : Old School, presentations, Mohammed ben Aubba almozamiri

مدارس توات العتيقة :

توات هي اسم بربري أُطلق على الواحات[1]، وهي منطقة عريقة تقع في جنوب غرب صحراء الجزائر، وتمتد جغرافيا ضمن امتداد أدرار وتيميمون وعين صالح ، ولهذا انقسمت المنطقة إلى ثلاثة أقاليم هي:

1/ إقليم قورارة[2] : وينحصر هذا الإقليم بين تسابيت وتبلكوزة.

2/ إقليم توات الوسطى : ويأخذ هذا الإقليم البقعة الجغرافية التي بين تسابيت ورقان .

3/ إقليم تيديكلت[3]: ويقع هذا الإقليم بين منطقتي رقان وفقارة الزوى شرق عين صالح .

ويُعرف عنها أنها " أرض ذات سباخ ، كثيرة الرمال والرياح ، لا تحيط بها جبال ولا أشجار"[4] ، لُقبت بهذا الاسم – توات– من حوالي سنة 518هـ[5]، حتى بداية القرن الرابع عشر الهجري لتأخذ الاسم المعروف حالياً بأدرار[6]، ويناهز عدد قصورها المائتي قصراً[7] ،موَّزعة في الأقاليم الثلاث المذكورة آنفاً .

كما يقصد بالمدارس العتيقة[8] تلك المدارس الدينية التقليدية الأصيلة أو ما يُعرف بالزوايا و المدارس القرآنية ؛التي انتشرت في ربوع منطقة توات منذ الفتح الإسلامي ؛الذي حظيت به المنطقة على يد عقبة بن نافع الفهري[9] ،سنة 46هـ [10] ،حينها اتسمت المنطقة بحركة عالية من الحركة العلمية ،وتمثل ذلك في عكف أهلها على حفظ كتاب الله تعالى، وتنشيط حركة العلم في المدراس العتيقة (الزوايا) المنتشرة انتشار سكانها وعلمائها ، الذين حملوا راية العلم في سائر أقطارها تدريساً ،وتأليفاً في شتى العلوم والمعارف ، وإن دلَّ هذا فإنما يدل على حرص التواتيين وحبهم للعلم والقرآن الكريم .

كما تمتاز تلك المدارس بأصالة التعليم وتلقين العلوم الشرعية وشرح مبادئ العقيدة الربانية ،وكافة العلوم اللغوية والأدبية ،و ما أحوجنا أن نشكر فضل هذه المدارس العتيقة،وشيوخها الذين أسهموا في نمو وبناء السرح الإسلامي واللغوي.

ويقول أبو القاسم سعد الله واصفا الجانب العلمي لمنطقة توات : " وهذه المنطقة غنية بتراثها العلمي والديني ، وغنية بعلمائها ومؤلفيها ، وبزواياها ونظمها ، وكذلك غنية بآثارها ومكتباتها"[11].

وأول ما نبدأ به النظر في كلام سعد الله هو الحديث عن غنى منطقة توات بالزوايا ؛فهي تزخر بهذا المَعْلم الفكري الموّجه والمربي للنفوس وتزكيتها، وتعدُّ وسيلةً ناجعةً في أداء الرسالة العلميّة ، كما تعدُّ أيضاً نموذجاً إسلامياً في التعليم والإرشاد لما لها من دور في خدمة الحركة الدينية، وذلك بتعليم القرآن الكريم ،وعلوم الشريعة لجميع الشرائح الثقافية ،والفئات والأعمار، الذين يتوافدون عليها من أماكن مختلفة – يستفيدون من نظامها الداخلي بحكم بُعدهم عن مقارٍّ سُكناهم – للجلوس إلى الشيوخ المؤسسين لهذه الزوايا والاستماع إليهم .

تلك الزوايا التي غلب عليها الطابع الديني لم يمنع ذلك من وجود حركة لغوية بداخلها ، فقد كانت هذه المعارف الدينية تتخللها وقفات لغوية ، كدراسة علامات الإعراب مرة كل أسبوع[12] ، بالإضافة إلى تحفيظ بعض المتون النحوية[13] ك:الآجرومية ،ولامية الأفعال ،والألفية ، وملحة الإعراب ، وقطر الندى ، حيث كان يعمد الطلاب إلى حفظ أجزاء من هذه المتون ،فتعرض على الشيخ ليقوم بشرحها ، مع إعطاء الشواهد المتعلقة بكل بيت ، وتبيين الخلاف النحوي في المسألة إن وُجد[14].

ولا يظنّن أحد أن هذه الزوايا اقتصرت في تدريسها للنحو على المختصرات المتأخرة وشروحها ، فالأمر لم يقتصر على ذلك ، لأن تبيين الخلاف في المسائل النحوية التي كان يغوص فيها هؤلاء الشيوخ أثناء التعليم تتطلب منهم– وبدون شك– الحديث عن البذور الأولى لهذا الخلاف ، وكيف نشأ؟، وما هي أطرافه؟، وأسبابه؟، وماذا نتج عنه؟، وغالباً ما يدفع ذلك إلى التعمق والبحث ،ومراجعة كتب المتقدمين بهدف رفع المستوى ، ومن هنا يتضح لنا أن هذه المجالس العلمية التواتية تطرقت لأهم الأصول النحوية ،وأقطاب المدارس النحوية بآرائهم المختلفة.

وقد يكون واضحاً الآن أن هذه الزوايا العلمية أدّت دوراً هاماً في مكافحة الأمية ، مع خدمة الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن أنها ساعدت على نشاط الحركة اللغوية داخل الناحيّة التواتيّة .

طريقة التدريس في المدارس العتيقة :

جرت العادة في إقليم توات عند بلوغ الطفل سن الرابعة أو الخامسة ، أن يلتحق بالمدرسة القرآنية ، أو ما يسمى بالكتاتيب ؛ والكتاتيب هي ذلك المكان الذي يتلقى فيه التلميذ دروسه الأولى ، وتربيته الأساسية على يد الشيخ[15]، ويُسمى مصطلح الكتاتيب عند التواتة بـ " أقربيش"[16] ؛ وهو مصطلح بربري يُطلق عليه في بعض المناطق الجزائرية بالجامع.

وطريقة التدريس تكون على قسمين :

الطريقة الاولى : وهي دراسة الكتاتيب ، أو ما يصطلح عليه بأقربيش كما قلنا سابقاً ، ويبدأ الطفل في هذه المرحلة بتعليم وحفظ الحروف الألفبائية (أ– ب – ت– ث–...) ، وبعدها ينتقل إلى حفظ الفاتحة ، فالمعوذتين ، وهكذا بالتسلسل عبر سور القرآن الكريم ، بالإضافة إلى تحفيظ بعض المتون الفقهية ، كمتن ابن عاشر ، والعبقري ، والأوجلي ... إلى غير ذلك من المتون المتعارف عليها عند أهل المنطقة ، وفي هذه المرحلة يتدرب الطفل على الخط والإملاء.

الطريقة الثانية : وهي دارسة المدارس أو ما يصطلح عليه بالزوايا ، وهي مرحلة يتوجه إليها التلميذ بعد حفظه للقرآن ، وتعلّم بعض المبادئ الفقهية والعربية ، وغالباً ما تكون هذه المدارس ذات نظام داخلي يستفيد منه الطلبة الوافدون عليها بحكم بعدهم عن مقارِّ سكناهم ، وتتمثل مهمة هذه المدارس (الزوايا) في تعليم القرآن وتفسيره وشرحه ، والتفقه في المذهب المالكي ، والعقيدة ، وكذا التضلع في علوم العربية من نحو ، وصرف ، وبلاغة ، وعروض ، وذلك بالاعتكاف على أمَّات الكتب وشروحها ، ويتم ذلك بقراءة وشرح كل فن وكتبه على حدة ، حتى نهاية الفن ثم كتب الفن الآخر ، وكل ذلك بإشراف الشيوخ ؛ الذين يقومون بشرح هذه الكتب وتفسيرها تفسيراً ارتجالياً.

وتأسيساً على ما سبق ، يبدو جلياً أن منطقة توات شهدت نشاطاً خصباً وازدهاراً واسعاً في العلوم اللغوية ، ولنأخذ على سبيل المثال علم العروض ؛ الذي حظي باهتمام بالغ من لدن الشيخ محمد بن أب المزمّري ،الذي خلّف بصمات على سجل تاريخ المنطقة، لكن ظلّ _ ولفترة طويلة _ في طي النسيان على الرغم من وفرة الإبداع والأعمال التي تحمل في طياتها بوادر الاجتهاد ، فمن هو ابن أُبّ ؟ ، وما هي مكانته العلمية ؟ ، وما هي إسهاماته المبذولة في الدرس العروضي ؟

التعريف بشخص المزمّري : هو أبو عبد الله[17] ،محمّد بن أُبّ بن أحْمِيدْ،وفي رواية بن أحمد[18] ،بن عثمان بن أبي بكر[19] المزمِّري ؛من مواليد 1094هـ الموافق لـ 1683م ،ويظهر ذلك من الرِّحلة التي كتبها ابنه ضيف الله[20] القائل فيها عن والده:"ولد لست سنين بقيت من القرن الذي قبل هذا "[21] ،وهو هنا يقصد القرن الحادي عشر ،لأن ضيف الله عاش في القرن الثاني عشر وتوفى في أواخره[22].

وكان مولد محمد بن أُبّ في أحضانِ قرية أولاد الحاج[23] ،التابعة لمدينة أولف الواقعة جنوب شرق أدرار ،وبها – أي أولاد الحاج – نشأ مولعاً بالعلم ،فتلقى مبادئ علومه الأولى لينتقل بعدها إلى مدينة زاوية كُنْتة[24] وينهل من بحورها العلمية التي جعلت منه منارة في العلم والعمل بين الناس إماماً ومربياً ،فاتخذها – ولفترة طويلة – مسكناً[25] ،وظل هناك دارساً ومدرساً ،ليشدَّ بعدها الرِّحال إلى عدة أصقاع عربية وإسلامية طلباً للعلم والمعرفة ، حتى استقرَّ به الطواف والجولان بمدينة تيميمون الواقعة شمال أدرار ،التي كان بها لحده ومضجعه الأخير[26].

طريقته في التدريس :

لقد عكف محمد المُزمّري(ت1160ﻫ) كغيره من المشايخ التواتية المشهود لهم بالكفاءة في آداب اللغة العربية وأصول الدين ، على الاشتغال بالتدريس في المساجد والزوايا ، حيث اتخذ من مدينة زاوية كنتة مرفأً له في هذه المهنة[27].

وكانت فُرص التعليم في ذلك الوقت مُتاحة أمام كل الفئات حسب اختلاف الأعمار والأجناس ، حيث يُعلِّم الشيخ التلميذ مبادئ القراءة والكتابة أولاً ، ثم حفظ القرآن ثانياً ، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة تعليمية أرقى من سابقتها ، وفيها يقوم الشيخ بإلقاء المواد الدينية واللغوية على الطلبة ، مع المطالبة باستيعابها وحفظها قصد تعميم الفائدة[28].

وسار المزمّري على هذا النهج في طريقته التدريسية ، إلاّ أنه كان يتميز بصفة الضجر على الطلبه[29] ،وذلك كله لحرصه على مستقبلهم ،حيث كان يُراعي القُدُرات العلمية والمكتسبات القبلية لهؤلاء المتعلمين ومستواهم وأعمارهم ، وهذا ما يتطلب انتقاء المادة العلمية كلٌّ حسب مستواه وقدراته ، وهي طريقة مفيدة لمراعاتها التدرج في تلقين المادة التعليمية ، وعنها يقول ابن خلدون :"اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدَّرج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً ، تُلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن ، هي أصول ذلك الباب ويُقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ،ويُراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه،حتى ينتهي إلى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم ...وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ...هذا وجه التعليم المفيد "[30].

ومن الشيوخ الذين يشهدون للمزمّري بهذه القدرة على امتلاك هذا الأسلوب التعليمي ، تلميذه عبد الرحمان التنيلاني (ت1189ﻫ) ، الذي يقول :"... حضرتُ إقراءه المرشد المعين فأعجبني تدريسه ، فواعدته إن رجع لبلده أن أرحل إليه للأخذ عنه ،... وحضرت دروسه في الفقه والنحو واللغة والتفسير ، وكان متقناً مجيداً فَطِناً يُباحثُ الشُّراح في مجلسه بأحسن بحث"[31].

كما كان يقوم بتسهيل الصعب في مؤلفاته التي كانت تصبُّ في قالب تعليمي محض ، وذلك عندما يستشكل الأمر على طلابه ، ويظهر لنا ذلك من قوله في بداية شرحه للأبيات المعكوسة:"والباعث على ذلك ما قد بلغني عن بعض الطلبة ممن يُعانيها أنه كان يستشكلها ، حتى أفضى به الحال إلى القدح في معانيها ، فلما بلغني ما من القدح أنالها تعيَّنَ عَلَيَّ تنزيهها عن ذلك فقلت أنا لها ، فشرعت في تفصيل شرحها بيتاً بيتاً"[32]، هذا فضلاً عن أنه كان يعمد إلى التيسير في تصانيفه بالإكثار من الأمثلة ، وفي ذلك تراه يورد عدةَ عباراتٍ توحي لهذه السهولة ،منها قوله:"فافهم ما ذكرت لك حال كونه مُسهّلاً بالأمثلة"[33] ،وقوله أيضاً :" فافهم ما فصَّلتُ لك حال كونه مُكمّلاً بالأمثلة"[34].

إسهامه في العروض وموسيقى الشعر: لقد تبحّر في هذا العلم وأتقنه إتقاناً ، الأمر الذي ساعده على تصنيف المصنفات التالية :

01_ روائق الحُلْلْ في ذكر ألقاب الزِّحاف والعلل[35] :وهي أرجوزة تطرق فيها لأهم الزحافات والعلل العروضية، ألّفها سنة 1126ﻫأي 1714ﻡ، وقد جاء ذُكرها ضمن المصنفات اللغوية في الجزائر[36] ، و جاء في مطلعها : (رجز)

قالَ عَبِيدُ رَبِه مُحْتَسِباً محمّدُ المُزمّرِيُّ نَسَباً

الحمدُ لله الذِي قَدْ مَهّدَا لَنا عرُوض دِينِه وأرْشدا

وختمها بقوله:

ثُم صَـلاةُ الوَاحِدِ العَلِيِّ مـعَ السَّلامِ الطّيِّبِ الزَّكي

على الرَّسُول الهاشمِي المُرْتَضَى وآلِهِ والصَحْبِ ما صَبْحٌ ضَحا

02_ دُرَرُ النُّحور في فك البحور[37] :وهي قصيدة بيّن فيها كيفية فكّ الدوائر العروضية ، بدْءاً بدائرة المُختلف ، ثم المُؤتلف، و المُشتبهْ ، بعدها المُجْتثْ ، وصولاً إلى دائرة المُتقنْ ، ألّفها سنة 1116ﻫ الموافق لـ 1705م.

يقول في مطلعها: (طويل)

بدأتُ بِحَمْدِ الله ربِّي مُصلِياً عَلى أحْمَدَ الهَادي الرِّضا عَلَمَ الهُدى

وأصْحابِهِ والأكْرمِين وآلِهِ وبَعْــدُ فَخُذْ فَكّ البُحورِ على الوَلاء

وقد نالت القصيدة إعجاب أحد العُلماء ، حتى قال فيه أبياتاً[38].

03_ أسماء البحور وأوزانها[39] : وهي قصيدة عقد فيها أسماء البحور، مع تعداد الأوزان الأصلية لكل بحر، والقصيدة بكاملها هي :

بَدا للطَويلِ الطِيبُ الذّوقُ تمْثِيلُ فعولُن مفاعيْلنْ فعولُنْ مفاعلُنْ

والمدِيدُ العَزْبُ فِيه يَقولُ القائلُ فاعلاتن فاعِلنْ فاعلاتنْ فاعِلُنْ

وزِنِ البسيطَ الذي تهْواهُ يا فاضِلُ مسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُن فاعِلُن

و وافرها لهُ النّغماتُ قابِلةٌ مُفاعلَتُنْ مُفاعلَتُنْ مُفاعلَتُنْ

وبِهذِه اللّفظاتُ يُوزن كامِلٌ مُتفاعِلُن مُتفاعِلُنْ مُتفاعِلُنْ

و هزْجُ الشِّعْرِ أبْدَتْهُ أقَاوِيلُ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُنْ

اسْمعْ لِرَجْزٍ وَزْنُهُ لاَ يُشْكَلُ مُسْتَفْعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولاتُ

رَمْلُها فِيه الأغاني مُطّرِباتُ فاعِلاتُن فاعِلاتُنْ فاعِلاتُ

بَحْرٌ سرِيعٌ أحْرُفٌ منْظوماتُ مُسْتفْعِلُن مُسْتفْعِلُنْ مفْعوُلاتُ

ذُو الانْسِراحِ اسْتَحْلاهُ منْ يَعْقِلُ مُسْتفْعِلُن مَفْعُلاتُ مُسْتفْعِلُ

خُذْ خفِيفاً قد قالَ فيهِ النُّقّادُ فاعِلاتُنْ مُستفْع لُنْ فَاعِلاتُ

لِبَحْرٍ مَهْمى يُضارِعْ تَفاعِيلُ مفَاعِيلن فاعِ لاتُنِ مَفاعِيلُ

قُلْ ذُو اقْتِضابٍ لِمنْ قَدْ يَسْألُ مفْعُولاتُ مُسْتفْعِلُنْ مُسْتفْعِلُ

كَلْماتٌ مُجْتثُها مُسْتَعْذِبَاتُ مُسْتَفْعِ لُنْ فاعِلاتُنْ فاعِلاتُ

زِنِ المُتقارِب بما قد أقُولُ فعُولُنْ فعُولُنْ فعُولُنْ فَعُولُ

04_ مفاتيح البحور[40] : وهي منظومة في بحور الشعر يقول في مُسْتهلِها :

وبِهذِهِ الأجْزاءُ تَمّ الكَامِلُ مُتَفاعِلُنْ مُتَفاعِلُنْ مُتَفاعِلُنْ

إنّ سَعْيِي في رِضاكُمْ أرمَلُ فاعِلاتُنْ فاعِلاتُنْ فاعِلاتُنْ

وفي أجْزاءِ وافِرِهُمْ تقُولُ مُفاعَلتُنْ مُفاعَلتُنْ فَعُولُنْ

05_ أوزان البحور السبع المُهملات[41] : وهي قصيدة عرض فيها البحور المهملات ،مع إعطاء وزن كل بحر من هذه الأبحر السبع المهملة ،وفحوى القصيدة مايلي:

شَجانِي مُسْتطِيلٌ لَهُ نَفْسِي تَمِيلُ مَفَاعِيلُنْ فَعُولنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُ

أنْفُسُ القومِ لِلْمُمْتَدِ تَمِيلُ فاعِلُنْ فَاعِلاَتُنْ فاعِلُنْ فاعِلاتُ

صَاحِ في مُتَوَفِرٍ رَغِبَتْ رُواتكَا فَاعِلاَتكَ فَاعِلاَتكَ فاعِلاتكَا

حَبّذَا بَحْرٌ جَدِيدٌ مُسْتسْهِلُ فَاعِلاتنْ فَاعِلاتنْ مُسْتفْعِ لُ

غَرِيبٌ لاَ تُسامِيهِ المُهْملاَتُ مَفَاعِيلُنْ مفَاعِيلُن فَاعِلاَتُ

فِي عَرُوضِ المُشَاكِلِ لاَحَ تَمثِيلُ فَاعِ لاَتنْ مَفَاعِيلُنْ مَفَاعِيلُ

هَاكَ مَا دَارَكُوا بَعْدُ يَا فَاضِلُ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُ

06_ أبيات في البحور المهملات ودوائرها[42] : وهي نظم في دوائر هذه البحور السبعة المُهملات، قال فيها : (رجز)

بَيْتَانِ قدْ تَضمَنا مَا يَاتِي مِنْ أبْحُرٍ في الخَمْسِ مُهملاَتِ

فالمُسْتطِيلُ بَعْدَهُ المُمْتدُ والمُتوفرُ الجدِيدُ يَبْدُو

ثُمّ الغَرِيبُ بعْدَهُ المُشَاكِلُ والمُتَدَرِكُ فَخُذْ يَا سَائِلُ

فَالأَوّلاَنِ لَهُمَا المُخْتَلِفُ والمُتوَفِّرُ لَهُ المُؤْتَلِفُ

ومَا سِوى الأخِيرِ للمُجْتَلِبِ وهْوَ لَهُ متَّفقٌ بِهِ حُبِي

وخُصِصَتْ دائِرَةُ المُشْتَبِهِ بِأنْ خَلَتْ مِنْ مُهْمَلٍ فَانْتَبِهِ

والجدير بالذكر هنا ،أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو مكتشف هذه البحور ، ولا حاجة إلى إعادة تلك الروايات التي تعجُّ بها الكتب والمصادر في نسبة علم العروض للخليل ، لأنها ليست موضوع الدراسة، ويمكن الاكتفاء بالقول إن الفراهيدي هو مكتشف بحور الشعر الخمسة عشر المعروفة[43] ، لكنّ تلميذه الأخفش[44] استدرك عليه بحراً سماه المتدارك[45]، وبذلك أصبح مجموع البحور ستة عشر بحراً جُمعت في قول أحدهم :(طويل)

طَويلٌ يَمُدُّ البَسْطَ بِالوَفْرِ كَامِلُ ويَهْزِجُ في رَجْزٍ ويَرْمِلُ مُسْرِعاً

فَسَرِّحْ خَفِيفاً ضَارِعاً تَقْتَضِبْ لَنا مَنِ اجْتُثَ عنْ قُرْبٍ لِتُدْرِكَ مَطْمَعاً

وهي البحور المعروفة والمتداولة منذ عهد الخليل إلى يومنا هذا ، لكن إذا مضينا إلى القول فإنّ ثمّةَ ملْحظٌ ينبغي الإشارة إليه ، وهو أن محمّد المزمّري وبفضل عبقريته ونجاعته في هذا العلم تمكّن من إيجاد بحرٍ جديدٍ، سماه بحر المضطرب[46] ،ونظم عليه قصيدة في مدح النبي ﷺ من تسعٍ وثمانين بيتاً ، ومطلعها هو :

صَلِّ يا إلَهِي ثُمَّ سَلِّمْ دَائِماً عَلى خيرِ الأنَامِ

ما دَعَاكَ أوْ لَبَّاكَ مُحْرِمْ قَاصِداً إلى البيتِ الحرَامِ

أحْمدٌ رسُولُ الله أحمدْ سيُّد الوَرى طَهَ المُمجَدْ

وتفعيلات هذا البحر ، تظهر لنا من خلال تقطيع أحد أبيات القصيدة ،ولنختار على سبيل المثال لا الحصر ،البيت الأخير من القصيدة الذي يقول فيه :

يَا إلَهنَا حَـــــمْداً وشُكْراً إذْ هَدَيْتنا سِـــــــراً وَ جَهْرَا

0/ 0 / / 0 /0/ 0//0// 0/ 0 / / 0/0/ 0// 0// 0/

فاعلن فعولن فاعـــــلاتن فـــــاعلن فعولن فاعلاتن

كانت تلك أهم إسهامات مدارس توات العتيقة في الدّرس العروضي بفضل ما قدّمه الشيخ المزمري ،كما نأمل كذلك بعد كل هذا أن تكون نهاية عملنا هذا بداية لأعمال أخرى تثري المكتبة الجزائرية ،ونلفت النظر بذلك إلى ضرورة الاهتمام بمصنفات علماء وشيوخ تلك المدارس العتيقة الحبيسة في مخازن دور الكتب والمخطوطات التواتية ،والتي أراها جديرة بالتحقيق والدراسة ،لأن ما بقي منها مخطوطاً أكثر وأضعاف ما طبع ونشر ،فلا بدّ أن تتكاثف الجهود لإخراج هذا التراث من الظلمات إلى النور ،خدمة للتراث اللغوي من جهة ،ومساهمة في كسر جدار الصمت المخيم على المخطوطات من جهة أخرى .

خاتمة : وفي ختام هذه الدراسة نخرج بعدة نتائج أهمها :

1/ إن المدارس العتيقة (الزوايا) كانت منتشرة في منطقة توات انتشار سكانها وعلمائها ، الذين حملوا راية العلم في سائر أقطارها تدريساً ،وتأليفاً في شتى العلوم والمعارف ، وإن دلَّ هذا فإنما يدل على حرص التواتيين وحبهم للعلم والقرآن الكريم .

2/ إن تلك الزوايا (المدارس العتيقة)التي غلب عليها الطابع الديني كانت تتخللها حركة لغوية بداخلها.

3/ شهدت منطقة توات نشاطاً خصباً وازدهاراً واسعاً في العلوم اللغوية عامة ، وفي علم العروض خاصة ؛ وذلك من لدن الشيخ محمد بن أب المزمّري ،الذي خلّف بصمات على سجل تاريخ المنطقة في ذلك المجال .

4/ عكف محمد بن أبّ المُزمِّري كغيره من المشايخ التواتية المشهود لهم بالكفاءة في آداب اللغة العربية وأصول الدين.

5/ لقد تبحّر محمد بن أبّ في علم العروض وأتقنه إتقاناً ، الأمر الذي ساعده على تصنيف تلك المصنفات المذكورة.

6/ إن محمّد بن أبّ المزمِّري وبفضل عبقريته ونجاعته في علم العروض تمكّن من إيجاد بحرٍ جديدٍ، سماه بحر المضطرب ،ونظم عليه قصيدة في مدح النبي ﷺ من تسعٍ وثمانين بيتاً.

الهوامش

1 – توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850إلى 1902م ، أحمد العماري ، منشورات كلية الآداب بفاس ، المغرب ،ط1 ، 1988، ص11 .

2 – قورارة : نسبة إلى السبخة التي توجد في المنطقة تدعى بتيجورارين و منطقة قورارة تطلق على ضواحي تيميمون. يُنظر، توات والأزواد ، محمد الصالح حوتية ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، دط ، 2007 ، ج1 ، ص28 ،و توات في مشروع التوسع الفرنسي ، ص18 .

3 – تيديكلت : كلمة بربرية تعني كف اليد أو اليد المفتوحة ، و منطقة تيديكلت تقع مابين منطقة رقان وعين صالح. صفحات من تاريخ منطقة آولف ، عبد المجيد قدي ، أبحاث للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2007 ، ص18 .

4 – نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ومن دفن فيها من الأولياء والصالحين والعلماء العالمين الثقات، ومعه حديث جابر ، ، أحمد الطاهري، طبعة حجرية ، ص04.

5 – الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات ، محمد باي بلعالم ، دار هومة ، دط، دت ، ج1 ، ص09 .

6 – أدرار : كلمة بربرية تعني الجبل . الصحراء الكبرى وشواطئها ، إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،دط ،1983 ، ص188 .

7 – تاريخ ابن خلدون ، المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ابن خلدون ،تح : خليل شحادة ، مراجعة : سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، دط ، 2000، ج7 ، ص 76 .

8 – يُنظر ، المدارس العتيقة وإشعاعها الأدبي والعلمي بالمغرب ، المهدي بن محمد السعيدي ،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية ،ط1 ،2006 ، ص 07 وما بعدها .

9 – هو عقبة بن نافع الفهري ، من مواليد السنة الأولى قبل الهجرة ، وفي خلافة يزيد بن معاوية ,ولاّه سنة 62هعلى إفريقيا ، توفي رحمه الله بمدينة بسكرة الجزائرية . معجم مشاهير المغاربة ، أبوعمران الشيخ وآخرون ، جامعة الجزائر ، 1995م ، ص365– 366 .

10 – النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر ، عبد الحميد بكري ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر،ط2 ،2007م ،ص20 .

11 – تاريخ الجزائر الثقافي ، ابو القاسم سعد الله ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1998، ج3 ، ص 142 .

12 – الدَّر المنظوم شرح مقدمة ابن آجروم ، أحمد الطاهري ، مطبعة الواحات ، غرداية ، دت ، ص116.

13 – ينظر، توات والأزواد ، محمد الصالح حوتية ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، دط ، 2007م ، ج1 ،ص245 ،254 ،259 . و النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص54 .و التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11ه إلى القرن 14ه ، الصديق حاج أحمد، مديرية الثقافة لولاية أدرار،ط1 ،2003م، ص48، و صفحات من تاريخ منطقة آولف ، عبد المجيد قدي ، أبحاث للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2 ، 2007م ،ص216 ، و سلسلة النوات في أبرز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات ، مولاي التهامي غيتاوي ، المطبعة الحديثة ، دط، 2005م ، ص11 .

14 – النبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص55 .

15 – الكتاتيب القرآنية في الجزائر ، احمد الأزرق ، دار الغرب للنشر والتوزيع ن دط ، 2002 ، ص 27.

16 – أقربيش : هي بيت أو غرفة كبيرة تكون دائما بجنب المسجد يؤمها الصبيان (ذكور وإناث) لتعلم كتاب الله تعالى ومبادئ العلوم الفقهية والعربية .

17 – ينظر ، جوهرة المعاني في التعريف بعلماء الألف الثاني ، محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي، مخطوط بخزانة المطارفة ،أدرار ،ص30 ، ودرة الأقلام ،نقلاً عن قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، محمد عبد العزيز سيدي عمر ، دار هومة ، الجزائر ، دط ، 2002م ، ص111 .

18 – مقدم العي المصروم شرح على نظم ابن أبّ لأجروم ، محمد بن بادي ، طبعة حجرية ،ص01 ..

191919 – ينظر ، النبذة في تاريخ توات وأعلامها ،ص108 ، وقطف الزهرات من أخبار علماء توات ، محمد عبد العزيز سيدي عمر ، دار هومة ، الجزائر ، دط ، 2002م ص111 ، ومحمد بن أبّ المزمّري حياته وآثاره ،ويليه مخطوط شرح روضة النسرين في مسائل التمرين ،تح ، أحمد أبا الصافي جعفري ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط03 ، 2008م ، ص41 ، وصفحات من تاريخ منطقة آولف ، ص81.

20 – هو ابن الشيخ المزمري ، وهو كذلك عالم نحوي وفقيه .

21 – رحلة إلى الديار التواتية لزيارة قبر الوالد ، ضيف الله بن محمد بن أُبّ ، مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد ، ص70 .

22 – محمد بن أُب المزمري ، ص34 .

23 – ينظر ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ص111 ، والنبذة في تاريخ توات وأعلامها ، ص108 ، و قبيلة فلان في الماضي والحاضر ، محمد باي بلعالم ، دارهومة ، الجزائر دط ، دت ،ص297 ، ومحمد بن أُبّ ، ص41 ، وصفحات من تاريخ منطقة أولف ، ص81 ، و الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات ، محمد باي بلعالم ، دار هومة ، دط، دت ،ج1 ، ص89 ، و محاضرة حول التعريف بحياة الشيخ الإمام محمّد بن أُبّ المزمّري ، محمد باي بلعالم ، مخطوط بخزانة الشيخ باي ، آولف ،ص02 ، والتاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11هـ إلى القرن 14هـ ، الصديق حاج أحمد، مديرية الثقافة لولاية أدرار،ط1 ،2003م ، ص63.

24– هي مدينة تتوسط بين إقليمي تديكلت وقرارة ، ولذلك أُطلق عليها توات الوسطى أو توات .

25 – نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ، ص75 .

26 – ينظر،محمد بن أب المزمري ، ص41 ،42 ،43 ،وصفحات من تاريخ منطقة أولف،ص81 ،82 ،والرحلة العلية إلى منطقة توات ،ج1 ص89. وسلسلة النوات في أبرز شخصيات من علماء وصالحي إقليم توات ، ج1 ، ص106 .

27 – نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات ، ص 75 .

28 – إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتا سع عشر الميلاديين ، فرج محمود فرج ، أطروحة لنيل دكتوراه الدور الثالث في التاريخ ، جامعة الجزائر ،1977م ، ص 86 .

29 – يُنظر : قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ص 117 ، ومحمد بن أُبّ المزمري ، ص 43 .

30 – المقدمة ، ابن خلدون ،نسخة محققة لونان بإخراج جديد، دار الفكر ، بيروت ،دط ، 2004م ، ص551 ،552 .

31 – يُنظر : قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، ص 116– 117 ، ومحمد بن أُبّ المزمري ، ص 43.

32 – الرحلة العلية إلى منطقة توات ، ج1 ، ص 109– 110 .

33 – نيل المراد من لامية ابن المجراد ، محمد بن أب المزمري ، مخطوط بخزانة ابن الوليد ،(ص ب 73) ، أدرار ، ص 07 .

34 – نفسه ، ص 08 .

35 – مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار .

36 – المصنفات اللغوية للأعلام الجزائرية عبر القرون ، مختار بوعناني ن دار هومة ،الجزائر ، دط ، 2001م ، ص81 .

37 – مخطوط بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار .

38 – الأبيات مخطوطة بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار ، وجاء في بداية هذه الأبيات : ولما وقف العلامة الفقيه النحوي المحقق الأديب النحرير ، سيدي عبد الواحد القدوسي على هذه الأبيات– أي قصيدة فك البحور– قال : لقد أَحْكَمَ ابْنُ أُبّ فَكَّ دوائرا لِخَفْشَلَقٍ بَدتْ نُجوماً زواهِرا .

39 – مخطوطة بالخزانة السابقة .

40 – محمد بن أب المزمري ، ص63 .

41 – مخطوطة بخزانة ابن الوليد وليد ، أدرار .

42 – مخطوطة بخزانة ابن الوليد وليد .

43 – هذه البحور هي : الطويل – المديد – البسيط – الوافر – الكامل – الهزج – الرجز – الرمل – السريع – المنسرح – الخفيف – المضارع – المقتضب – المجتث – المتقارب.

44 – هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي مولى بني مجاشع ،يُكنى بأبي الحسن الأخفش وهو نحوي من نحاة البصرة،تتلمذ على سيبويه رغم كبر سِنه ،وكان معلما لوليد الكسائي ، وقرأ عليه كتاب سيبويه فوهبه سبعين ديناراً ، ألّف عدة كتب منها معاني القرآن ، المسائل الكبير ، توفي عام 215هـ أي 830م ، يُنظر ، طبقات النحويين واللغويين ، أبو بكر الزبيدي ،تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ،مصر ، ط2 ،1973، ص 72 وما بعدها ، و نزهة الألباء في طبقات الأدباء ،الأنباري ، تح : إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الأردن ، ط3 ، 1985م ، ص 45 .

45 – يُنظر ، كتاب العروض ، الأخفش ، تح : سيد البحراوي ، مراجعة : محمود مكي ، فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، دط ، 1986 . ص 04 ، و علم العروض والقافية ، عبد العزيز عتيق ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط1 ، 2006، ص20 .

46 – ينظر ،محمد بن أب المزمري ، ص54 ، وصفحات من تاريخ منطقة أولف ،ص82 ،وقبيلة فلان ، ص 300 ، و قطف الزهرات من أخبار علماء توات ،ص115 ،ومحاضرة في التعريف بحياة المزمري ،20 ،وتوات والأزواد،ج1،ص278 ،والرحلة العلية إلى منطقة توات،ج1 ،ص95 ،وسلسلة النوات في أبرز علماء توات ،ج3 ، ص31 .